

الديمقراطية أسوأ أنظمة الحكم!

فرانك هيل

موقع قضايا أمن الأسرة

8 أبريل 2010

'Democracy is the Worst Form of Government...'

By Frank Hill

Family Security Matters Website

ترجمة: علي الحارس

- كبير موظفي اثنين من أعضاء الكونغرس (سابقاً).
- عمل في لجنة الميزانية في مجلس النواب الأمريكي (سابقاً).
- عمل في مفوضية الاستحقاقات والإصلاح الضريبي (1994).

فرانك هيل

ينقل عن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق ونستون تشرشل قوله:

لقد تمت تجربة العديد من أنواع أنظمة الحكم على مدى التاريخ. وسيتم تجربة العديد غيرها في هذا العالم الذي تسوده الخطايا والكوارث. لا أحد يدعي بأن الديمقراطية كاملة ولا نقيصة فيها. إنما يقال إنها أسوأ أنظمة الحكم. وذلك إذا ما استثنينا من أنظمة الحكم هذه كل نظام تمت تجربته من قبل.

ربما يوافق على قول تشرشل كل من يرى الدساتير السياسية التي تحاك في الكونغرس والبيت الأبيض خلال سنة أو تزيد. لقد سمعنا الكثير من الأصوات تنادي مؤخراً بأن «نظام الحكم لدينا أصابه العطل». و«هذا المنهج لا يصلح بعد الآن». كما أن كلمات من أمثال «إبطال» و«انسحاب» أصبحت تتغلغل إلى الحوارات أكثر فأكثر.

ولكنني أصيح أمام هؤلاء «انتبهوا». فنحن لم نكن على هذا المستوى العالي من التفاؤل بجمهوريتنا الفيدرالية منذ أمد بعيد وزمن سحيق.

قد يسأل البعض «لماذا». والجواب: لأن شعب هذا البلد بدأ أخيراً يفهم الأهمية الكبرى والقيمة العظيمة للحريات التي نتمتع بها بضمانة الدستور الأمريكي كأفراد، وكأمة، وكمجتمع. هذه الحريات لم نكسبها دون عناء وخسائر كبيرة. وهي قابلة للاستلاب في لحظة من الزمن إن لم تقف الديمقراطية حارساً لها.

الديمقراطية أسوأ أنظمة الحكم!

إننا، باعتبارنا كائنات بشرية، نعيش في إطار حكومات تتفاوت من السيطرة الشاملة للطبقة العليا (الملوك مثلاً) إلى الحرية الفردية الكاملة قولا وعملا (أمريكا في أفضل مراحلها مثلاً). وإذا ما دققنا في حسابات المرحلة الحالية فإننا سنجد بأن الساعة قد أذفت للبدء بالتحرك بعيدا عن معسكر «السيطرة الشاملة» الآن وصولا إلى الخريف القادم. حيث سنشهد بعدها حركة جذرية للعودة إلى الحرية والعقلانية في إدارة الشؤون المالية.

إن أحاسيسنا اليوم تشك بوجود مخطط لتحميل الشباب الكثير من الضرائب التي ينبغي عليهم أن يدفعوها لهذه الحكومة المفسرفة إضافة إلى دين عام يبلغ 13 تريليون دولار، وهذا مما سيصيبهم بالجنون! حتى أن معظم طلاب الجامعات الحاليين لا يعلم أي شيء عن ماهية ضريبة (فايكا)¹!

إذا كنت ترغب بمعرفة سبب وجود نظام حكم جمهوري ديمقراطي في أمريكا فعليك أن تقرأ أحد الكتب العظيمة حقا، وهو كتاب (حرب البيلوبونيز The Peloponnesian War) للكاتب دونالد كاغان (Donald Kagan) من جامعة كورنيل (Cornell University)؛ أضف إلى ذلك كتابا عظيما آخر تنبغي قراءته، وهو (الإخوة المؤسسون Founding Brothers) للكاتب جوزيف ايليس (Joseph Ellis)، وفيه يقول أن من كان يريد حقا فهم الأفكار والأسس المنطقية التي تقف وراء القرارات التي اتخذها الآباء المؤسسون لأمريكا خلال عملية مناقشة الدستور فإن عليه أن يقرأ الكتب نفسها التي قرؤوها هم والانتباه إلى المفاهيم التي وجدوها مفيدة استنادا إلى قراءتهم للتاريخ، والتي كانت قراءة عظيمة بحق.

يرتكز كتاب الدكتور كاغان على واحد من الكتب العظيمة التي قرأها المؤسسون جميعهم، وهو كتاب بالعنوان نفسه للكاتب الإغريقي ثوسيديديس (Thucydides). وربما كانوا يحفظون مقاطع طويلة منه عن ظهر قلب. وفي كتاب كاغان تقرأ كيف انخرط النظام الديمقراطي الأثيني في أول «حرب عالمية» حقيقية (439-404 ق.م) مع امبراطورية اسبارطا (1) ضريبة فايكا (Federal Insurance Contributions Act Tax: FICA): ضريبة دخل تفرض في أمريكا على العمال وأرباب العمل لتمويل الحماية الاجتماعية والضمان الصحي. (المترجم)

الديمقراطية أسوأ أنظمة الحكم!

ثم مع الامبراطورية الفارسية. وقد شهدت هذه الحرب تجارب تاريخية عديدة منها: ظروف عالمية معقدة، مؤامرات، خيانات، سرقات، إفلاس دول، مناورات سياسية وقدرات قيادية ذكية، استراتيجيات عسكرية (عظيمة أو فاشلة).

في حرب البيلوبونيز¹ سجل التاريخ اسم من يمكن اعتباره أعظم «سياسي» عرفته الأرض. وربما لم يسمع القارئ عنه شيئا، إنه: ألسيبياديس (Alcibiades). إذ يتردد هذا الاسم طوال ثلاثين عاما من تاريخ حرب البيلوبونيز كما يتردد اسم جورج واشنطن في تاريخ أمريكا. باستثناء أن ألسيبياديس بدأ قيادته لأثينا قائدا من طراز جورج واشنطن، ثم انتقل إلى اسبارطا ليقود جيوشها، ثم غير توجهه ليساعد في قيادة الفرس وتقديم النصح لهم ضد كل من أثينا واسبارطا، ثم عاد منتصرا إلى السلطنة في أثينا قبيل نهاية الحرب بقليل!

لهذه الأسباب يمكن القول بأنه أعظم «سياسي» عرفه التاريخ، وليس أعظم قائد أخلاقي أو قيمي. ولذلك دواعيه الواضحة: فهل يمكن أن تتخيل رئيسا لأمريكا كجورج بوش الابن أو بيل كلينتون ينتقل إلى الاتحاد السوفيتي ليصبح قائدا له في ذروة توترات الحرب الباردة، ثم يذهب بعد ذلك إلى الصين ليصبح وزير خارجية ذي صلاحيات عسكرية، ثم يرجع إلى الولايات المتحدة حيث يتم انتخابه مرة أخرى كرئيس بإجماع 435 صوتا انتخابيا، وذلك كله ضمن إطار زمني لا يتجاوز ثلاثين عاما؟!

إننا لا نبتغي هنا الترويج لكتاب كاغان، وإنما توفير مصدر معتمد للقراءة وتكوين رأيك الخاص حول ما يمكن أن يحدث تاليا في عملية التطور السياسي الأمريكي. ولن نفسد متعة قراءة الكتاب إن ذكرنا بأن ديمقراطية أثينا خسرت حرب الثلاثين عاما، ولكنها عادت مرة أخرى بعد أقل من عام إلى جذورها الديمقراطية الراسخة المتمثلة بالمساواة للجميع والحرية للفرد.

1) حرب البيلوبونيز (The Peloponnesian War): صراع عسكري استمر 27 عاما (431-404 ق.م) بين أثينا من جهة واسبارطا وحلفائها من جهة أخرى. وانتهى بانتصار اسبارطا. (المترجم)

الديمقراطية أسوأ أنظمة الحكم!

لقد قرأ جيمس ماديسون¹ الكثير من الكتب قبل أن يذهب إلى مؤتمر فيلادلفيا لتقديم مسودة الدستور بالصورة الأفضل في رأيه، وبالرغم من أنه خسر في نقاش العديد من النقاط التي طرحها فإن ذلك لم يمنع من أن تحصل أمريكا على أفضل دستور في التاريخ.²

ينبغي قراءة الكتابين السابقين والاستعداد «للمعركة» القادمة، وهذا الاستعداد لا يتطلب منك التسلح أو خزن الذهب والطعام وحفر الخنادق، إنما يكفي الاستعداد للجدل الفكري والسياسي الذي يكاد يندلع.

إن الأنظمة الديمقراطية تجدد شبابها بين حين وآخر من خلال المعارضة الشديدة لتعديات الزمرة الاستبدادية الحاكمة في واشنطن والمتمثلة في القيادة المتحجرة والمتخندقة لكلا الحزبين، ومحامي المرافعات القانونية، واتحاد المتقاعدين وما أشبه، وبقراءة كتاب كاغان ستبين سبب إطلاق تهمة (الاستبداد) على كل هؤلاء، وذلك لأنهم يشتركون جميعاً في محاولة إبقاء الأمور على ما هي عليه.

عندما تقوم الأنظمة الديمقراطية بضغط زر إعادة التشغيل تتحول الأمور إلى الأفضل وبسرعة، وأول خطوة يمكن لك، عزيزي القارئ، أن تنجزها في سبيل ذلك أن تسارع إلى قراءة كتاب كاغان.

(1) جيمس ماديسون (James Madison) - (1751-1836): الرئيس الرابع للولايات المتحدة الأمريكية (1809-1817)، وهو من الآباء المؤسسين ويعتبر المسؤول الأول عن (وثيقة الحقوق) الدستورية التي ضمنت الحفاظ على حقوق المواطن الأمريكي والحرية الفردية. أدت مساهماته في كتابة الدستور إلى أن يطلق عليه المؤرخون لقب «أبو الدستور الأمريكي». (المترجم)

(2) حمل بحث ماديسون عنوان «عن الأنظمة الكونفيدرالية القديمة والحديثة»، وفيه استعراض لبنية وتاريخ الأنظمة الكونفيدرالية الإغريقية القديمة في ليايا وأمفيكتيونيا وآخايا، والامبراطورية الرومانية، والكونفيدرالية السويسرية، والمقاطعات الهولندية المتحدة، وجمع ماديسون ملاحظاته في كراس جيب قوامه 41 صفحة، وأشار إليه في كل من المؤتمر الفيدرالي ومؤتمر المصادقة في فيرجينيا، ويمكنك أن تجد أقساماً كبيراً من هذا الكراس بحرفيتها تقريباً في الأوراق الفيدرالية (18-20). (الكاتب)